بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال عضو المجمع اللغوى العربى ووزير معارف تونس الأسبق سعادة حسن حسنى عبد الوهاب باشا : « قضى المشرق فترة من الزمان منعكفا على ابى نواس والبحترى والمتنبى ولاسيما المعرى وابن سيناء ، وهم وان كانوا بلا مراء من مفاخر الآداب العربية وأمجادها ، الا أنه لايجوز أن يقتصر جهد الباحثين عليهم وأن يفتنوا بآثارهم فتونا ربما يحصر آفاق الشباب الناهض ، ويجعله قانعا بذلك النصيب بينما يوجد لديه خضم تلاطمت أمواجه وغمر عبابه الزاخر سواحل المشرق والمغرب على السواء ».

ويذكر سيادته من هؤلاء الذين ظهروا فى الغرب ابن رشيق، وابن حزم ، وابن رشد وابن سعيد الغرناطى وغيرهم .

ونظرت ، فرأيت من هؤلاء ابن رشيق الشاعر الناقد ، أو الناقد الشاعر البليغ ، رأيته فى المغرب يشبه أبا نواس فى المشرق، ورأيته فى بلاط المعز بن باديس كالبحترى فى بلاط المتوكل ، ورأيته فى كتابه العمدة كالجرجانى فى كتابه « الوساطة بين المتنبى

وخصومه » وكالآمدى فى كتابه « الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى » .

لذلك اتجهت بالدراسة والكتابة نحوه ، ووصلت حبلى بحبله ، لأنه فيما أرى قدم للغة العربية فى نقدها خير ما قدم ناقد لاسيما فى مجال نقد الشعر ، وأدى لها فى شعرها ما يرتفع به الى صفوف المقدمين من المحدثين المجيدين .

ثم هو برغم ذلك كله لم يحظ بدراسة مستقصية تكشف عن مكانته فى النقد والشعر أو تعرف بآثاره ، وربما كان ذلك حظ أدباء المغرب العربى ونقاده وعلمائه بصفة عامة ، وربما كان سبب ذلك كما يقول السيد الجليل الأستاذ / أحمد الشايب : ان هذا الصقع الغربى من الوطن العربى « قد أصيب بانقطاع الحلقات » بخلاف المشرق فان يقظة شعوبه ، وتوافر مصادره ، واتصال حياته منذ فجر التاريخ « قد أعان على دراسة أعلامه ، وتتبع جهوده »

« غير أنه مهما تكن الأسباب فانها لا تبرر ترك قرون ثمانية فى تاريخ الحضارة الأندلسية ، كانت تزهى بأدبها العربى وطابعها الاسلامى ،.. ولا ترك أفريقية تشقى بالجدب والنسيان طوال هذه القرون والى عصرنا الحديث » .

فاذا كنت اليوم أكتب فى سلسلة « أعلام العرب » عن واحد ممن عاشوا فى هذه المنطقة وهو ابن رشيق القيروانى ، فانما

لأقطع ذلك الصمت الطويل الذى التزمه كثير من العلماء عن غير قصد حيال هذه المنطقة ولأفتح باب الاتجاه بالدراسة نحو هذا الصقع الكبير من الوطن العربى ، لاسيما ونحن اليوم نعيش نهضة عربية شاملة قد امتدت من أقصى المشرق الى أقصى المغرب فى مختلف النواحى والجوانب .

واذا كنت قد قمت بدراسة جامعية حول ابن رشيق ، وموقفه من النقد ، ولاسيما نقد الشعر ، فان هذه الترجمة تختلف عن تلك الدراسة من حيث المنهج والخطة والأسلوب والعرض ، فاذا كانت الدراسة الجامعية تتسم بالعمق والدخول فى مناقشات كثيرة ، والتصدى للآراء المختلفة والمتشابكة حول القضية من القضايا ، فان هذه الترجمة تتسم بالوضوح وبسهولة العبارة وبالبعد عن المناقشات ، وبالقصد من أيسر الطرق الى رسم معالم الشخصية وتوضيح صورتها وسماتها بما يلائم القارىء العربى الذى ينشد الثقافة العامة أو المعرفة بمن انجبتهم أرض الوطن العربى .. على أن هذا المنهج يضع الحقيقة فى الصف الأول من الاعتبار ويلتزمها ما بدت له

وقبل عرض الموضوع أشير الى أن قد سبق الى الكتابة عن صاحب الترجمة اثنان من العلماء المعاصرين ، فأما أولهما فحسن حسنى عبد الوهاب باشا فانه كتب كتابا أسماه « بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » ، وجزء كبير منه يتصل بحياة المترجم وقد طبع الكتاب سنة ١٣٣٠ هـ . وأما ثانيهما

فالعالم المحقق الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى الأستاذ بالكلية الشرقية فى لاهور بالهند ، فانه ألقى محاضرة باللغة الأوردية فى الكلية عن ابن رشيق ، ثم عاد فنقل محاضرته هذه الى اللغة العربية ونشرها فى كتاب سماه « ابن رشيق » كما قام سيادته بجمع الكثير من شعر صاحبنا فى كتاب اسماه « النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف » وطبع الكتاب فى المطبعةالسلفية سنة ١٣٤٣ هـ . بالقاهرة .

ذلك كل ما كتب ــ فيما رأيت عن ابن رشيق ــ وقد أفدت منه فى كتابتى هذه وان خالفتهم فى كثير ، حتى لقد التقيت بصاحب البساط ، وأبديت لسيادته رأيى فى كثير مما جاء فى بساطه ، ولكم كان اعجابى واكبارى له حين قال فى تواضع العلماء : انه يعتزم اعادة النظر فى الكتاب عند اعادة طبعه .

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الترجمة قد لفت الأنظار نحو ذلك الجزء الكبير من الوطن العربى ، وأعنى المغرب ، كما أرجو أن أكون قد ألقيت ضوءا على حياة ابن رشيق وجهوده فى النقد والشعر .

وبالله عونى ومنه توفيقى ...

القاهرة فى يناير ١٩٦٥ عبد الرءوف مخلوف

الفصل الأول
عصر ابن رشيق

توطئة :

يقول الأستاذ الشايب : « ان آثار الرجل ثمرة طبيعية لعاملين : هما بيئته وشخصيته وما يكون بينهما من تفاعل » ، ويظهر أن هذا القانون تحكم فى كثرة الدراسات الحديثة التى تتناول الأفراد ، واذ أن هذه الترجمة تتناول « ابن رشيق الناقد الشاعر » فانه صار حتما أن أتعرض لعصره فى نواحيه السياسية والعلمية والاجتماعية لأنه هو وما ترك من بصمات عقله وفكره على الثقافة العربية أثر من آثار هذه النواحى جميعا .

وهو نشأ فى شمال أفريقية، وفى ذلك الجزء الذى سماه العلماء العرب باسم المغرب ، وهو الجزء الممتد من تلك القارة فى شمالها على البحر الأبيض المتوسط ، وفى شمالها الغربى على المحيط الأطلسى حتى السدس الأقصى، ويتسع ذلك المغرب موغلا فى داخل القارة تبعا للخصب والمطر وتوافر أسباب قيام الحياة ، ويضيق حيث تقتر الطبيعة عليه فى ذلك .

وكلمة الغرب أو المغرب انما أطلقت على هذا الجزء من الدولة العربيه الاسلامية فى مقابل اطلاق الشرق أو المشرق على أجزائها

الواقعة فى قارة آسيا والموغلة فيهـا الى أواسـطها حيث خط الاسلام فى أقاليمها ، واعتبر الجزء الواقع فى آسيا أصل الدولة العربية ومشرقها لأن فيه الجزيرة العربية المهد الأول والأصيل لهذه الأمة العربية أولا والاسلامية ثانيا ، ولأن منه كان انطلاق العرب مع الفتوح الاسلامية نحو الشـمال الأفريقى . ومن ثم استقر فى الأذهان أن الشرق والمشرق أصل العرب والعـروبة ، والغرب والمغرب فرعها،وساعد على استقرار هذا المعنى ما أصاب العرب فى الأندلس من هزائم ردتهم عن هذه البـلاد بعد قرون عديدة . فبقى الأصل وذبلت فروع من فروعه .

وقد جعل الجغرافيون المغرب ثلاثة أقسام : أدنى ، وأوسط، وأقصى،وأساس التقسيم عندهم القرب والبعد عن عاصمة الدولة العربية ، تلك التى كانت دائما فى المشرق ، فتارة تكون فى الحجاز وأخرى فى العراق وثالثة فى الشام ، أما العواصم العربية بعد ذلك فى افريقية وغيرها فتتبع لهذه العواصم فى المشرق الأم . وعلى هذا أطلقت كلمة المغرب الأدنى على أقرب أجزاء الساحل الشـمالى لأفريقيا من عاصمة الدولة العربية ، وذلك هو الجزء الشرقى من المغرب والممتد على ساحل البحر الأبيض فى مواجهة ايطـاليا .. وأطلقت كلمة المغرب الأقصى على أبعد أجزاء هذه المنطقـة من العاصمة العربية ، وهو الجزء المطل على المحيط الأطلسى . وبين هذين المغربين مغرب أوسط ، لأنه يقع من دار الخلافة بين بين(١).

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ففيها تفاصيل تفيد فى تحديد التقسيم ص ٦٥ – ٦٧

وابن رشيق نشأ فى المغرب الأدنى على ما سنذكره ، وتنقل بين مدنه ، وكانت نهاية المطاف به فى جزيرة صقلية تلك التى تقع فى بحر الروم ـ كما كانوا يسمونه ـ جنوب ايطاليا ، وكانت حياته من بداية العشر الأواخر فى القرن الرابع الهجرى والى ما بعد منتصف القرن الخامس بقليل ، ومن ثم لزم أن نعرض لهذه المنطقة فى هذه الفترة بكلمة :

الحالة السياسية :

(أ) فى المغرب :

يرى الناظر فى خريطة هذه المنطقة ـ قديما ـ أسماء طائفة من المدن ، فالقيروان ، والمهدية والمحمدية أو المسيلة ، وصبرة ، وتونس .

غير أنه لابد من التنبيه الى أن تونس كانت تطلق على مايمكن أن نسميه المغرب الأدنى ، وقد بقيت تونس بهذا التصور ـ بعد الفتح الاسلامى تابعة فى ادارتها لولاة مصر . الى أن انفصلت فى منتصف حكم الدولة الأموية .

فلما كانت الدولة العباسية ولى الرشيد عليها ابراهيم الأغلب سنة ١٨٤ هـ . وقد أورث ابراهيم هذا ملك هذه الولاية لأبنائه من بعده . وظلوا يتعاقبون عليها الى أن ظهر الفاطميون ، وقويت شوكتهم فانتزعوها منهم سنة ٢٩٦ هـ . وأصبحت من ذلك التاريخ جزءا من دولة الفواطم العبيديين .

ولما استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ هـ . وبنوا بها مدينة القاهرة ، واتخذوا منها قاعدة لملكهم ، وانتقل مركز الثقل اليها ، صارت تونس ولاية تتبعهم ، ويقوم عليها ولاة من قبلهم، يديرون الحكم فيها لحساب الفاطميين .

وكان المعز لدين الله الفاطمى قد اختار لحكمها قبل مسيره الى مصر أحد أعوانه ، ذلك هو بلكين بن زيرى . فى سنة ٣٦١ هـ . واتخذ هذا من مدينة القيروان قاعدة لولايته تلك ، وظل بلكين وفيا لأولياء نعمته الفاطميين يعترف لهم بالتبعية حتى مات فى سنة ٣٧٣هـ وخلفه فى حكم تونس من بعده ابنه المنصور الذى ظل يحكم أيضا حتى مات فى سنة ٣٨٦ هـ ، وقام فى مقامه من بعده ابنه باديس .

وقد تمتع باديس هذا بما لم يتمتع به أسلافه من قبل ، وصار اليه حق تعيين العمال والولاة فى البلاد التى تخضع لحكمه ، ولذا اقراه يولى عمه حماد بن بلكين على أشير احدى مدائن المغرب يومئذ . ولكن حمادا مالبث أن استشعر القوة ، فبنى القلعة المعروفة فى التاريخ بقلعة حماد ، فى الغرب ، وأخذ شيئا فشيئا يتخذ لنفسه من مظاهر الاستقلال عن ابن أخيه باديس ما جعل حكمه أشبه بدولة فى داخل الدولة وان ظل يعترف لباديس بالتبعية ، ثم كان على ذلك خلفاؤه من بعده . (١)

---

(١) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٧٥ .

وأيا ما كان فان انتهاج الحماديين لسياسة الابتعاد عن باديس وأخذهم بمظاهر الاستقلال هيأ الفرصة لقيام فريقين فى المغرب أخذت تتسع بينهما الهوة حتى صارا الى عداء ، ذانك الفريقان هما الباديسيون فى مدينة القيروان والمهدية وما تبعهما من مدائن، والحماديون فى قلعتهم الحصينة .

واذا كان العبيديون قد أعلنوا انفصالهم عن الدولة العباسية فى المشرق ، وخلعوا طاعتهم ، وخطبوا لأنفسهم فى القاهرة ، فانه لما مات باديس سنة ٤٠٦ هـ . وخلفه على المغرب ابنه المعز ، لم يلبث هو الآخر أن أعلن انفصاله عن العبيديين فى القاهرة ، خلع طاعتهم ، وولى وجهه شطر المشرق حيث الخلافة العباسية فى بغداد ، فخطب للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وكان ذلك فى سنة ٤٣٩هـ(١). وجاءه رسول المستنصر الفاطمى العبيدى فقال له: قل لصاحبك ان لنا ملك أفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر»(٢)

ومن ذلك التاريخ انطلقت يد المعز بن باديس فى حكم المغرب ولكنه لم يستمتع طويلا بذلك الاستقلال ، فما أن انفصل عن الفاطميين حتى قامت بينه وبين بنى عمومته ، الحماديين ،فتن داخلية مثيرة اذ خلع هؤلاء طاعته ، ووقفوا منه موقف عداء ، وهكذا صار أبناء العمومة وكل منهم يقف لصاحبه ، يتحين به الفرص ، ويتربص به الدوائر ، وغذى هذه الخصومة من بعيد أولئك

(١) صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٢٤ وقد جعل ابن الاثير تاريخ ذلك ٤٤٠ هـ ، وفى موضع آخر من كامله ٤٤٣ .

(٢) المعجم للمراكشى ٢٠٤

الموتورون العبيديون ، فكانوا يرسلون من القاهرة بسمومهم ، ويؤججون نار العداوة بين الأخوين بما يوحون الى قبائل بنى هلال أن تغير تارة على المعز وأخرى على بنى حماد ، وكل ضعف يصيب أيا من الأخوين فانه قوة لأعدائهم على أى حال

حتى اذا كثرت غارات المغيرين على المعز فى القيروان، وأظهروا عليه وعلى بنى عمومته من الجرأة ما عجز معه عن أن يردغاراتهم، أشار عليه أصحابه بالارتحال عن القيروان الى المهدية ، وكان عليها ابنه تميم من سنة ٤٤٥ هـ . فقصد اليها فى ٤٤٩ هـ .

وقد مكن ارتحال المعز عن القيروان للثائرين منها فأعملوا فيها تخريبا وهدما واحراقا على جارى عادات القبائل الهمجية كما يقول ابن خلدون .

ولحقت القيروان بذلك نكسة ، وأصابتها نكبة عدت من أكبر ما نكبت به مدينة فى التاريخ الاسلامى واندكت بهذا معالم مدينة من أزهى وأزهر مدنيات هذه البلاد فى ذلك الحين ، وقد شهد هذه الفتن شاعرا المعز ، ابن رشيق وابن شرف ، وقالا فى ذلك مرثيتين من أروع ما رثيت به المدن فى الشعر العربى ؛

وبارتحال المعز الى المهدية صار أمر البلاد الى ابنه تميم الذى ظل يحكم حتى سنة ٥٠١ هـ وقد مكن له فى الحكم عقله وحكمته وأدبه ، أما أبوه فقد مات فى ٤٤٩ ورثاه ابن رشيق .

ب : فى جزيرة صقلية :

وصقلية التى ارتحل اليها ابن رشيق آخر العمر هى تلك الجزيرة القائمة فى البحر الابيض المتوسط ـ وكان يسمى بحر الروم ـ فتحها المسلمون سنة ٢١٢ هـ . ايام حكم الأغالبة بافريقية وظلت تحت حكم المسلمين الى أن نزح اليها جماعات من الأفريقيين فى أثر مجاعة كانت سنة ٣٩٥ هـ . وكان يحكمها يومئذ جعفر بن يوسف بن عبد الله الكلبى ، فرحب بالنازحين ، ولقى هؤلاء من أهل الجزيرة كل معونة ومساعدة ، اذ أفسحوا لهم مكان العيش، ويسروا لهم أسباب الارتزاق وتوثقت الصلاة بين الجزيرة وشمال افريقية . (١)

لكن مطامع المعز بن باديس فى المغرب جعلته تتطلع الى صقلية ليضمها الى ملكه ، ويبسط عليها سلطانه ، فسير اليها فى سنة ٤١٧ هـ . ولديه عبد الله وأيوب فاتحين ، وقد استطاعا أن يقتلا حاكمها ، وأن يبسطا عليها نفوذهما ، وأن تدبرا الأمر فيها بحكمة

ثم اتجه تفكيرهما الى التوسع فى جنوب اوربا ، وعزو النورمان، وتأهبا لذلك وتجهزا ، وآمدهما أبوهما المعز من شمال افريقية بأسطول ضخم .

وبينما النفوس متطلعة الى معركة ينتصر فيها المسلمون ، هبت على الاسطول عاصفة عاتية فأغرقته ، وأغرق معه الامال .

---

(١) المسلمون فى صقلية

وكانت هذه النكبة سببا لا فى فشل الغزو فحسب ، وانما أيضا فى ضياع صقلية من أيدى المسلمين ، بل تجاوز أثرها الجزيرة الى المغرب ، ذلك أنها أطمعت الهلاليين فى ملك المعز بالمغرب وبدأ النورمان من ذلك التاريخ يجترئون على صقلية ، ويناوشون أهلها الى أن تمكنوا من نزولها ، وحاول أيوب ابن المعز أن يستخلصها منهم ، وتهيأ لذلك ، ودبر له ، ولكن جماعة من المسلمين فيها انضموا الى النورمان ، فأفسدوا على أيوب تدبيره ، واضطر وجوه القوم الى الانسحاب منها ، وقصدوا المهدية على مراكبهم التى بقيت لهم من الاسطول ، حاملين معهم جميع من رأى الانسحاب من خاصة القوم وأعيانهم ، وكان ذلك فى سنة ٤٦١ هـ .

وبهذا ضاعت صقلية من أيدى المسلمين بعدما أقاموا فيها حضارة عربية اسلامية وبعدما « صار أكثر أهلها مسلمين ، وبنوا بها الجوامع والمساجد » (١)، وخلا الجو لرجال النورمان فانقضوا على بقية ما بقى من تلك الحضارة يعفون عليه حتى عادت كما كانت قبل الفتح الاسلامى .

فى هذه الحياة التى تختلف بالسلم والحرب ، والاطمئنان والخوف لا يكون لرجل كابن رشيق بد من أن يتأثر فى حياته ، فالسلام الذى ساد الدولة جعله يتطلع فى شبابه الى لقاء رجالاتها ، والى الحياة فى ظلهم،فى مدينة القيروان ، وكان له ما أراد اذ وصل

(١) معجم ياقوت فى صقلية

الى بلاط المعز ، وصار شاعره الأثير عنده ، أو فى الأقل واحدا من شعرائه . حتى اذا صارت السياسة الى فتن فغارات فحروب جعلت المعز يرتحل عن القيروان الى المهدية رأينا ابن رشيق « ينحشر فى زمرته المحروبة » اليها ، ولكن مقامه فيها لا يطول فيولى ناحية صقلية ، تاركا شمال افريقية بأحداثه وفتنه واضطراباته ولكن فى صقلية يصمت فلا نسمع له صوتا الا ما يكون من وصفه لركوب البحر اليها فى الأبيات التى نسبت اليه ، وفيها يقول :

ولقد ذكرتك فى السفينة، والردى متوقع بتلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف والليل مسود الذوائب داج
وعلى السواحل للأعادى غارة يتوقعون لغارة وهياج
وعلت لأصحاب السفينة ضجة وأنا وذكرك فى ألذ تناج

الحياة الاجتماعية :

اذا كانت الحالة السياسية فى الأمة من الأمم وجها من وجوه حياتها فان الحياة الاجتماعية هى الوجه الآخر وهى صدى لها ، تتأثر بها ، وتتلون بألوانها ، وتتشكل باتجاهاتها ، ففى فترات الأمن والاستقرار ينصرف الناس الى معايشهم ، ويقبلون على الاستمتاع بأسباب العيش ما تهيأت لهم أسباب ذلك . أما اذا أطلت الفتن برءوسها ، واضطربت سياسة الدولة ، وأصابها مد وجزر ، واجترأ عليها أعداؤها ، فان الناس يتأثرون بذلك كله ، ويشاركون فى مواجهته ، ولا يستطيعون الحياة بمنجى منه ، والأدباء والعلماء من الناس ، يضربون فى ذلك بسهم ، ولو

أن تأثرهم قد يكون أحيانا بسلبية ينكمشون معها فلا ينتجون ، وانما يلتزمون الصمت ، ولكنهم فى الاغلب يعبرون عن وقع الأحداث على مشاعرهم وأحاسيسهم .

وأكثر ما يظهر من أثر الاضطراب كما يقول ابن خلدون ، « يكون فى الأمصار التى تكون كراسى للملك » ذلك ما نلمسه حين نستعرض أمور الدولة الصنهاجية التى عاش تحت رايتها صاحب السيرة .

ففى فترات الاطمئنان رأينا حضارة فى ذلك الجزء من الوطن العربى لا تقل عن مثيلتها فى المشرق ، فدواوين يقوم بالأمر فيها رجالات من أصحاب الثقافات العريضة ، ومجالس تضم من العلماء والشعراء الى بذخ يدل على غنى وترف ، يقول صاحب بساط العقيق : « وكانت الدواوين ـ فى القيروان ـ ثلاثة ، ديوان الجيش ، وديوان الرسائل ، وديوان الجباية » .. فاذا علمنا أن ديوان الرسائل كان يضم أكثر من مائة كاتب بليغ كابن رشيق وابن شرف وغيرهم تبينا ما كانت عليه الحياة الاجتماعية من انتعاش يستدعى قيام ذلك الديوان ـ يقول حسن حسنى عبد الوهاب الصمادحى : « وكان يتلو الجباية ديوان المراسلات أو تحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير لمخاطبة عمال الجهات ، والولاة ، والقواد وغيرهم ، وكان هذا الديوان فى دولة المعز منتصبا بمدينة صبرة على نصف ميل من القيروان بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوى على أكثر من مائة كاتب

بلّيغ كابن رشيق وابن شرف ، ويرأسهم أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى مربى المعز ابن باديس وكاتب سره (١) » .

وكذلك يقول صاحب كتاب « المسلمون فى صقلية » عن المعز « وكانت له مدينة من أروع ما رأته البلاد الافريقية (٢) » .

وفى فترات الفزع ينتكث حبل الدولة ، ويضطرب الناس فى معايشهم ، وتختل حياتهم الاجتماعية ، فيصيرون الى فوضى تعقد الألسنة عن أن تقول ، وتغل الأفئدة عن أن تفكر الا مايكون فى تصوير ذلك كالذى نراه من شعر تميم بن المعز وقد عاش النكبة نكبة القيروان ، ورأى ملك أبيه يتقلص ويأزر الى المهدية بعد غارات بنى هلال ، فانه يصور ذلك فى أبياته التى منها :

يادهر ما أقساك من متلون ... فى حالتيك وما أقلك منصفا
أتروح للنكس الجهول ممهرا ... وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفا
واذا صفوت كدرت شيمة باخل ... واذا وفيت قطعت أسباب الصفا

ثم ينظر تميم فى اجتراء المغيرين على ملك أبيه ، فلا يسعه الا أن يستنهض همم القوم للذود عن الحياض ، ورد المغيرين ، وذلك اذ يقول فى لوعة وحسرة :

متى كانت دماؤكم تطل ... أما فيكم بثأر مستقل

(١) بساط العقيق فى ص ٢٨
(٢) المسلمون فى صقلية ١٧٨

وتمتم عن طلاب المجد حتى كأن العزم فيكم مضمحـــل

وهذا الشعر أيا تكون قيمته الفنية يحمل الدليل على أن الحياة الاجتماعية دائما صورة وصدى لحياة السياسة التى تحياها الدولة وعلى أن الأدب فى شعره ونثره لايمكن الا أن يكون رجعا لهذه الحيـــاة .

الحياة العلمية والأدبية :

رأينا فيما تقدم كيف كانت حياة السياسة تنتقل بالمغرب من حال الى حال ، فبعد أن كان جزءا من الدولة الاسلامية التى قامت بالمشرق والتى مدت أجنحتها الى ذلك الاقليم ، أخـذ حـكامه يستقلون عنها ، ويقيمون لأنفسهم فيه ملكا خالصا لهم ، حتى اذا انتقل الفاطميون الى مصر ، وبنوا القاهرة واتخذوها قاعدة لحكمهم رأينا باديس بن المنصـور ثم ابنه المعز من بعده ينفصـلان عن الفاطميين ، ويجعلان من المغرب دولة تتحدى دولة القاهرة .

واذا كان ذلك يترك بصماته على الحالة السياسية والاجتماعية فان أثره لا يقل فى جانب الحيـاة العلمية والأدبية ، على أن أثر الاستقلال هنا كثيرا مايكون خيرا وبركة على العلم والأدب ومرد ذلك أن الوالى الذى يستقل عن مركز الحكم يجهد فى أن ينافس أصله بما يهيىء للعلـم والعلماء والشعر والشعراء من أسبـاب الحياة والنهوض ، والممالك كالأفراد يستهويها الفخر بنهضة الحياة العلمية ، لذلك لم يكن غريبا أن نرى المغرب ينافس المشرق ، ولم

يكن غريبا أن ترى دولة الصنهاجيين على أيام باديس، والمعز وتميم تنافس الفاطميين فى القاهرة ، ذلك أن اعتزاز هؤلاء بالاستقلال وزهوهم بالحكم ، ورغبتهم فى الظهور أمام منافسيهم بمظهر الند فى شتى مناحى الحياة ــ الى جانب ما كانوا هم أنفسهم يتمتعون به من حب العلم وتذوق الأدب ذلك جميعه ــ هيأ تربة خصبة لقيام حياة علمية وأدبية نامية حية فى هذه الفترة بتلك البلاد فى مدائنها المختلفة كالقيروان والمهدية .

فى القيروان :

ويتحدث عنها المراكشى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب فيقول : « وكانت القيروان هذه فى قديم الزمان منذ الفتح الى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب ، اليها ينسب أكابر علمائه ، واليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم ، وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه ، وذكر علمائه ، ومن كان فيه من الزهاد والصالحين والمتبتلين كتبا مشهورة ككتاب أبى محمد بن عفيف، وكتاب بن زيادة الله الطبنى .

ولقد كان حسب الرجل أن ينتمى الى القيروان حتى يعرف بالعلم والأدب ، وقد ذكرت كتب التراجم منهم من لا يتسع المقام لذكر أسمائهم ، وانما نشير الى نفر ممن ذكرهم ياقوت فى معجمه فهو يذكر من هؤلاء :

ابراهيم بن على الحصرى القيروانى صاحب زهر الآداب ومات

بالمنصورة احدى قرى المغرب سنة ٤١٣ هـ . وقد توجه اليه ابن رشيق ببيتيه :

رفقا أبا اسحق بالعالم ... حصلت فى أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة ... فضل ابليس على آدم

وكان الحصرى هم أن يضع كتابا يذكر فيه شعراء القيروان ويرتبهم على حسب أعمارهم فبلغ ذلك ابن رشيق فخاطبه بالبيتين منكرا عليه اتجاهه ، قالوا وكان البيتان سببا فى عدول الحصرى عما كان عزم عليه . ومنهم خلف بن احمد القيروانى الشاعر الذى قال عنه ابن رشيق فى كتابه « انموذج الزمان فى شعراء القيروان » انه شاعر مطبوع تأدب بافريقية وله شعر معروف جيد ، مات بزويلة المهدية سنة ٤١٤ هـ ومن شعره :

هل الدهر يوما بليلى يجود ... وأيامنا باللوى هل تعود
عهود تقضت وعيش مضى ... بنفسى والله تلك العهود
ألا قل لسكان وادى الحمى ... هنيئا لكم فى جنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضا ... فنحن عطاش وأنتم ورود (١)

ومنهم ابن عيذون الهذلى اللغوى ابن الحسن التونسى ولد فى تونس سنة ٤٢٨ يوم عيد النحر وتوفى بالاسكندرية ، قالوا ومن جملة شعره قصيدة فى الرد على المرتد البغدادى فيها أحد عشر ألف بيت على قافية واحدة ، وفيها فوائد أدبية .

(١) معجم البلدان جـ ١١ ص ٥٥

ومنهم احمد بن أبى الأسود القيروانى ، وكان غاية فى النحو واللغة وله تصانيف فى النحو والغريب ومؤلفات حسان وكان شاعرا مجيدا .

ولا نطيل الحديث عن هؤلاء وغيرهم فان الاتيان عليهم مما تكفلت به كتب التراجم والطبقات ، وحسبنا أن نشير الى أن ابن رشيق وجد فى شعراء القيروان من الكثرة ماجعله يختصهم بكتاب يذكرهم فيه ، ويذكر من مختار أشعارهم ، ويسمى الكتاب « انموذج الزمان فى شعراء القيروان » فان فى ذلك الدلالة على مبلغ ماوصلت اليه النهضة الأدبية ، ومن باب أولى النهضة العلمية فى هذه المدينة التى كانت فى المغرب تنافس بغداد الدولة العباسية فى المشرق .

فى المهدية :

وهى المدينة الثانية بعد القيروان فى عصر الصنهاجيين ــ عصر ابن رشيق ــ وتبعد عن القيروان بمسيرة السائر يومين ، وكان قربها هذا من القيروان جديرا بأن ينال من مركزها العلمى حيث يكون فى المدينة الكبرى . وعاصمة الملك ــ القيروان ــ مايصرف الناس عنها ، ولكن النهضة العلمية ، وانتشار الحركة الفكرية والأدبية جعل من المهدية مركزا ثانيا من مراكز الثقافة فى المغرب ، وفى ذلك يقول أحد المؤرخين « وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهدية ، كما ازدان بالقيروان ، فكان فيها بلاط فاخر ، التف حوله ثلة صالحة

(1) معجم البلدان ج ١٤ ص ٨ .

من رجال العلم ، وأعلام الأدب ، وكبار الفلاسفة ، والشعراء ـ يقول المؤرخ ـ وكانت أيام المهدية على صغر المملكة ، وتعاقب الحروب بينها وبين الهلاليين أياما مشهورة فى تاريخ الفن والعلم والأدب .. وقصدها من كل ناحية أمثال ابن رشد فيلسوف الأندلس ، وكان أمير المهدية تميم من خير الرجال عقلا وأدبا وحسن ادارة ، ومعرفة بأصول الأدب والشعر » . (١)

ولا غرابة فى أن يكون ذلك شأن المهدية فأميرها تميم ابن المعز الذى حكمها أكثر من نصف قرن كان هو نفسه شاعرا يتذوق الأدب ويستشعر الجمال فى الفنون ، ويقدر أثرها فى حياة الأمم « وانتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس ، منهم ابو اسحق بن أبى خفاجة فى صباه ، وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوسى ، وأبو الحسن على بن عبد العزيز الحلبى المعروف بالفكيك وغيره ، وخدمه بالشعر من أهل افريقية أيضا جماعة ومدحه قبل هؤلاء شعراء المعز أبيه » . (٢)

المكتبات :

وأما المكتبات والكتب التى الفت فى المغرب ، ورفعت الى حكامه فى القيروان والمهدية وغيرهما ، أو التى اجتلبت من المشرق ومن الأندلس الى شمال افريقية ، فقد تكونت منها مكتبات كبرى عامة وخاصة فى قصور الولاة وفى بيوت العلماء وبيوت الذين يناصرون الحركات العلمية دائما .

(١) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٤

(٢) المجموعة المغربية ص ٣٠٧